إسهامات السريان في مجالي الإدارة والترجمة في العصرين الأموي والعباسي

غسان علاء الدين[1]

أولًا: مقدمة

لكل حضارة بنيان تقام عليه، وتنهض به، فتتقدّم أو تتأخر، تحضر أو تغيب، فإما أن يكون لها حضور فاعل بين الحضارات والأمم، وإما أن تعيش على الفتات وتقتات به. ولكن السؤال هنا ما هي العناصر الأساس التي تقوم عليها الحضارة، أي حضارة؟ الجواب من غير شك يومئ إلى الإنسان الفاعل صاحب الدور والوظيفة، الإنسان صاحب الإرادة الذي يسعى لرسم كينونة خاصة به تميزه كإنسان يرتقي في بناء الحضارة الإنسانية.

ومن هنا، فإن المتتبع نشأةَ الحضارة العربية الإسلامية والقارئ إياها قراءة موضوعية من غير تعصب أو استعلاء؛ سوف يجد بما لا تخطئه عين الإنصاف أن تلك الحضارة لم تنهض على أكتاف شعب أو قوم بعينه، ولم تُؤسّس على عنصر بشري بعينه، وإنما أسهمت في بنائها ثلة من الأجناس والأقوام التي تعدّدت ثقافاتها، وتنوّعت مصادرها، فكان حضورها مؤثرًا إلى هذه الدرجة أو تلك بما يتوافق مع ثقافة تلك الأقوام وفكرها ولغتها التي تجيد الإفادة منها. وهذا ما نلاحظه كثيرًا عند حديثنا عن السريان -موضع عنايتنا في هذا البحث- الذين كانوا يعدّون الشريان الحيوي الذي تدفقت من خلاله دماء الترجمة والنقل من اليونان إلى العرب الذين كانت أرواحهم تواقة إلى الارتواء من منابع الفلسفة والطب اليونانيّين نظرًا إلى حاجتهم الماسة إلى تأسيس دولتهم الفتية وإرساء بنيانها.

لم يكن حضور السريان واهتمامهم بالمعرفة والعلوم والترجمة محصورًا بمرحلة ما بعد الفتح العربي فحسب، بل امتدّ إلى ما قبل ذلك بكثير، فقد أسسوا عددًا من المدارس في ما بين النهرين، من مثل مدرسة الرها ومدرسة قنسرين على الفرات ومدرسة نصيبين في الجزيرة اللواتي دُرِّسَت فيهن العلوم اليونانية باللغتين اليونانية والسريانية، فضلًا على تدريسهم اللاهوت والفلسفة والطب، وترجمتهم مؤلفات كبار الفلاسفة والعلماء من أمثال أرسطو وأبقراط وأفلاطون وغالينوس وغيرهم. وقد انتقلت تلك الثقافة في ما بعد إلى العرب المسلمين، فتلقفوها وأعادوا إنتاجها وتبيئتها من جديد

(1) باحث وأكاديمي سوري.

بما لا يخرج عن روح الإسلام من أجل أن يكون ذلك عونًا لهم في مناقشة عدد من القضايا الدينية والاجتماعية التي تواجههم، وكان عليهم أن يقدموا جوابًا حاسمًا لها، ولا سيما أنهم في أولى مراحل بناء دولتهم.

يستهدف البحث تفحّص مبررات الحضور الكثيف للعنصر السرياني في الحضارة العربية الإسلامية من جهة، وسيحاول قراءة دلالات ذلك الحضور وسياقاته من جهة أخرى، للوقوف على الدور الذي لعبه السريان في تلك البيئة الإسلامية في وقت كانت فيه حاجة قوية إلى الإفادة من خبرة تلك الشعوب التي تمتلك المؤهلات الثقافية والمهارات الإدارية. ومن هذه القضية الرئيسة يتفرع عدد من الأسئلة الفرعية التي يمكن إجمالها بسؤالين أساسَين هما:

1. ما الدور الإداري والتنظيمي الذي لعبه السريان في بناء الدولة الأموية؟
2. ما الدور الثقافي والفكري الذي قام به في السريان في العهد العباسي عبر ترجمة العلوم المختلفة إلى اللغة العربية؟

ثانيًا: ثقافة السريان ولغتهم

إن السريان الذين ضلعوا اللغة اليونانية، ووقفوا على مفرداتها ومعانيها، ووقفوا على المبنى والدلالات التي ترمي إليها، لعبوا دورًا أساسيًا وحاسمًا في المجتمع العربي الإسلامي، فكانوا جزءًا منه، وشاركوا في بناء ثقافته وفكره، فالسريان لهم السبق في الميادين العلمية، ((فالثقافة السريانية في القرون الوسطى حصلت على انتشار عريض، وأظهرت تأثيرًا كبيرًا على تطور الثقافة العالمية، وكفرع من الآرامية فإن السريالية تعد لغة أدبية جدّ متقدمة، بحيث إنها قادرة على توصيل أعقد الأبنية الفكرية وأصعبها، والمصطلحات والمفاهيم الفلسفية))[2]، وهو ما هيأ لهذه اللغة أن تتصدّى لمهمة الترجمة بقدر ما توافر لأصحابها من الأحوال والإمكانات، فكانت بهذا المعنى الوعاء الذي احتوى الثقافة اليونانية ثم أعاد إنتاجها بطريقة أو أخرى لكي تتماشى مع البيئة الإسلامية الجديدة التي لم يدّخر أصحابها جهدًا كي يتلقفوا بشغف كل ما نقله علماء السريان وتراجمهم من اليونانية إلى السريانية أو العربية مباشرة. ((فالكتابة السريانية كانت أولى الكتابات السامية التي بلغت درجة رفيعة من التطور والتقدم في مجال التدوين، ولقد سار السريان على نهج الإغريق الذين استخدموا أحرفًا خاصة للدلالة على أصوات المدّ (الأحرف الصوتية) حيث أدخل السريان في كتاباتهم لبلوغ هذه

(2) نينا بيغوليفسكايا، ثقافة السريان في القرون الوسطى، خلف الجراد (مترجمًا)، ط1، (سورية: دار الحصاد، 1990)، ص41.

الغاية علامات وإشارات خاصة ثم بدؤوا باستعمالها بشكل منتظم وثابت))[3].

فاللغة السريانية وفق هذا المعنى -التي عُبِّر عنها من خلال الكتابة- تمدّدت وتوسّعت ولاقت رواجًا واسعًا في الأوساط المسيحية والإسلامية على حد سواء، لم تكن لتستوعب الفلسفة والطب والأدب فقط، بل كانت ترتدي فوق ذلك -وهذا ما منحها لاحقًا مزية جديدة حين أضحى لأصحابها شأن عظيم في مجال الإدارة في العصر الأموي- ((في منطقتي الشرق الأدنى والشرق الأوسط طابع اللغة العالمية، لغة الدبلوماسية والتجارة، وأصبحت المحطات التجارية السريانية مواطن ومنابع للكتابة والمراسلات السريانية، إضافة إلى أهميتها العلمية والدعاوية بالنسبة للسريان))[4]، وهذا يعني أن السريان الذين استطاعوا ببراعة وحرفية أن يستوعبوا تراث اليونان ويترجموا قسمًا كبيرًا منه، لم يفيدوا منه العرب وحدهم فحسب، وإنما عمّموا تلك الفائدة على الشعوب الأخرى كالفرس والهنود من خلال مدارسهم في الرها وفي نصيبين[5] وقلنسرين، وغيرها من المدارس الأخرى، وخصوصًا كانت ((اللغة السريانية على مدى عدة قرون لغة دولية (عالمية) في بلدان الشرق ومناطقه، والذي لم يقتصر استعمالها على السريان وحدهم، وإنما شمل جيرانهم أيضًا -الفرس، البيزنطيين، والعرب. جرت المباحثات الدبلوماسية باللغة السريانية بين إيران وبيزنطة، وفي هذه اللغة وضعت الأحكام والنصوص الإجرائية- العملية في سورية وفي بلاد ما بين النهرين، وقد كتبت بهذه اللغة وترجمت مختلف الكتب من شتى الأنواع والأجناس، بدءًا من الشروحات على مؤلفات أرسطو ووصولًا إلى حكايات كليلة ودمنة، وعن طريق السريان بالذات تعرّف الفرس والعرب على العلوم والفلسفة اليونانية))[6].

لقد دعت الحاجة والضرورة معًا إلى أن يكون للسريان دور فاعل وأساس في الدولة العربية الإسلامية، إذ لما انطلقت الأخيرة، وجد الخلفاء أنفسهم بحاجة إلى من يساعدهم في إنشاء دولة منظمة وإدارتها، يتسنى لهم من خلالها السيطرة على الشعوب والقبائل التي تتوزّع في عرض البلاد وطولها على اختلاف مشاربها ومعتقداتها. وقد كان السريان -الذين اكتسبوا مهارات جمّة في أثناء مشاركتهم في إدارة شؤون الدولة البيزنطية- أكثر هذه الشعوب خبرة في الإدارة وتمرسًا بها، فضلًا على إلمامهم بلغات عدة من مثل اليونانية والفارسية. فقد ((حملت اللغة السريانية وآدابها تصوراتٍ وآراء أيديولوجية جديدة، وأفكار فلسفية، ومفاهيم فلكية وجغرافية، ومعلومات علمية مجربة في حقلي

(3) سمير عبده، السريان قديما وحديثًا، ط1، (عمان: دار الشروق،1997)، ص158.

(4) نينا بيغوليفسكايا، ثقافة السريان في القرون الوسطى، ص 44.

(5) ((في الحقيقة إن قواعد أكاديمية نصيبين وأنظمتها، تعتبر أروع معالم التعليم السرياني، وهذه القوانين، أو اللوائح تجسد أقدم نظام داخلي لجامعات القرون الوسطى)). المرجع السابق نفسه، ص77.

(6) المرجع نفسه، ص 158.

السيمياء والطب. وقد استندت هذه المعارف على العلوم الإغريقية البيزنطية التي تطوّرت وازدهرت ثم أضيفت إليها معطيات جديدة توصل إليها السريان))[7]، ففتحت لهم الباب على مصراعيه كي يشاركوا مشاركة فاعلة مع غيرهم من الأقوام الأخرى في بلورة أساليب خاصة بهم في الإدارة ومسك الدواوين والجباية، وهو ما مكّن صلاتهم بالخلفاء وقربهم منهم، لا سيما حين سمح لهم معاوية بمزيد من التغلغل في المجتمع العربي من خلال تسامحه معهم بقدر ما كان ذلك مفيدًا له في تعميق سلطته وتقوية سلطانه كي يستتب له النظام والأمن.

ثالثًا: الدور الإداري للسريان في العهد الأموي

لم تبدأ الإسهامات الجدية في المشاركة الفعّالة للسريان ببناء الحضارة العربية الإسلامية إلا في المرحلة الأموية التي اتخذت دمشق عاصمة لها، فهي المدينة التي عانى سكانها -ومنهم السريان- الاحتلالَ البيزنطي، كما أن العرب -أصلًا- لم يكونوا يملكون المعرفة أو الخبرة اللازمتين لإدارة الدولة ومسك الدواوين -وهو ما تحقق بتمامه في العنصر المسيحي السرياني الذي كان يملك مواهب لم يكن يحوزها غيره- فقد تلاقت في هذا المضمار إرادتان: إرادة الخلفاء والأمراء الأمويين الذين كانوا يطمحون إلى تقوية دولتهم وإقامة بنيانها من جهة، وإرادة السريان الذين يملكون الكفاءات والمؤهلات التي تخوّلهم استلام المناصب الإدارية، وتسيير دفة الدولة على خير وجه من جهة أخرى. وبالتقاء الإرادتين تحققت المصلحة المشتركة لكل من الطرفين على حد سواء. ولم يكن لتلك الإرادة المشتركة أن تتبلّور وتتعيّن في الواقع لولا الرعاية الخاصة التي حظي بها السريان في العصر الأموي، وبخاصة في عهد معاوية الذي ظهرت رعايته للنصارى في أوضح صورها، عندما أعاد بناء كنيستهم في الرها التي دمرها الزلزال. ولم يتوقف عند حدود ذلك فقط، وإنما قرّب منه أيضا سرجون النصراني، وجعله من أخص خاصته، وكان ((سرجون بن منصور من أكبر مستشاريه نفوذًا ومكانةً، وقد أورثه ابنه يزيد))[8].

وعليه فقد كان الخلفاء الأمويون -بعد أن خبروا السريان وعرفوا مقدار ما يحوزونه من مواهب تجلت بداية في اهتمامهم بالعلم والمعرفة والترجمة، وضلوعهم في معرفة اللغات والاهتمام بتعلّمها، ومعرفتهم بأمور الإدارة والخبرة فيها- يرغبون في الاعتماد على هؤلاء السريان، وإشراكهم في إدارة الدولة، حتى وصل الأمر بهم إلى تقلّدهم مناصب عليا فيها، ((فقد كان طبيعيًا بعد أن اتسعت رقعة

(7) المرجع السابق ذاته، ص57.

(8) يوليوس فلهوزن، تاريخ الدولة العربية، ص 127.

الدولة العربية بفتوح الشام والعراق ومصر وفارس والمغرب والأندلس، وانقلبت الخلافة إلى ملك، أن يحتك العرب بشعوب متحضرة لها أنظمة وإدارات متفوقة، وأن يفيدوا من هذه الأنظمة سيما ما يتعلق منها بالدواوين وبعض النظم الإدارية، فأخذوا عن الفرس نظام الدواوين،.... وبقي أمر الشؤون المالية في الموالي والذميين))[9].

ولم يكن الخلفاء والأمراء ليتوقفوا عند الاستعانة بالسريان في شغل المناصب العليا في الدولة فحسب، بل كانوا أيضًا يعهدون إليهم المكاتب الخاصة التي كانت مهمتها الإشراف على الأمن وحفظ أسرار الخليفة الخاصة ومراسلاته، وهذا لم يكن ليتم لولا المنزلة العالية التي احتلها السريان عند الخلفاء، والمتأتية من سعيهم الحثيث في أن يبذلوا جهدًا استثنائيًا في النهوض بإدارة الشؤون الموكلة إليهم بحرفية عالية، حتى تلك التي تتخصص مثلًا بأمور الحرب والفتوحات وقيادة الجيش. وفي مرحلة لاحقة من التاريخ الإسلامي أوكل الخليفة العباسي (المأمون) ((إلى المسيحي السوري ليون الطرابلسي حملة الفتح الأموية الأولى الزاحفة على القسطنطينية من البحر، فكم كانت العلاقة حميمة بين أبناء سوريا آنذاك، وكم كان التسامح قائمًا حين يقود مسيحي أرثوذكسي أسطولًا لدولة وظيفتها إشاعة الإسلام ضد دولة أرثوذكسية))[10].

فالسريان وفق هذه الحال -وإن كانوا يدينون بالمسيحية ويدافعون عنها- لم يكن ذلك ليمنعهم من أن يعلنوا ولاءهم للمجتمعات التي يعيشون بين ظهرانيها، وتجمعهم بشعوبها إرادة حياة مشتركة ومصير واحد. ((إن تشبث المسيحيين السوريين ببلادهم جعلهم لا ينجرّوا إلا وفق مصالح دولتهم دون الاعتبارات الدينية التي تجمعهم بالخصم مميزين بين الدنيا والدين في علاقاتهم السياسية))[11]، ولذلك ليس غريبًا البتة أن نرى ذلك الاحترام للعنصر السرياني جليًا في المجتمع العربي الإسلامي، لأن السريان عرفوا كيف يوائمون بين دينهم ودنياهم، بين ما هو لهم وما هو لغيرهم، بين واجباتهم تجاه الدول التي يعيشون فيها ويتشاركون الإرادة المشتركة مع شعوبها، وحقوقهم في هذه الدول.

هناك كثير من الأمثلة على الحضور المميز في المرحلة الأموية، وأول مَن نال القربى لديهم حين الفتح العربي هو منصور بن يوحنا السرياني الذي كان وزيرًا للمالية في عهد الخلفاء الراشدين. أما ابنه سرجون، وحفيده يوحنا المشهور بالقديس يوحنا الدمشقي[12]، فقد تولَّيَا ديوان الأعمال

(9) عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، ط1، (مصر: مؤسسة شباب الجامعة، 1997)، ص406.

(10) سمير عبده، المسيحيون السوريون قدينا وحديثًا، ص11.

(11) المرجع السابق ذاته، ص11.

(12) ((ولد يوحنا الدمشقي في دمشق نحو سنة 675 وتوفي عام 749، وكان أبوه الوجيه منصور بن سرجون يتولى غدارة بيت المال عند الفتح الإسلامي، وهو الذي تولى مع أسقف دمشق مهمة تسليم المدينة للعرب الفاتحين. وقد وكل إليه الفاتحون أمر جباية الأموال الأميرية ومسك حسابات الجيش، فكان عند معاوية ومن خلفه وزيرًا مطلقًا كالصدر الأعظم عند سلاطين بني عثمان، فأولاه الاثنان ثقة

والجبايات في عهد الخلفاء الأمويين. وأثبت مؤرخو السريان جميعهم أن إثناسيوس برجوميا الرهاوي ولَّاه الخليفة عبد الملك بن مروان (685- 705م) الإدارة المالية في القطر المصري، وكان عهده في تلك الوظيفة عهد خير وبركة وإقبال على الدولة الأموية، ومنها أيضًا ارتحال الخليفة نفسه إلى حران واستقبال بطريرك السريان أونيس الرابع الحافل إياه، فكتب له الخليفة فرمانًا يخوله بموجبه على الشؤون البيعية جميعها، وهو أول فرمان أعطي لبطريارك سرياني من خليفة المسلمين[13].

حاول الأمويون الاستفادة من كل ذي خبرة في مجال الإدارة لبناء دولتهم الفتية، وساعدهم في ذلك آنذاك التشريع الإسلامي، وهو أن يبقى ((أهل الأديان الأخرى على أديانهم ما داموا قد قبلوا دفع الجزية، بل لقد بلغ من سعة صدر خلفاء بني أمية أنهم كانوا يبيحون المناقشات الدينية بين علماء الإسلام، وعلماء المسيحية في حضرتهم))[14]. وكانت توزع عليهم المناصب الإدارية العليا من دون المسلمين، هو ما عبر عنه أوليري بقوله: ((إنه في عهد الخليفة عبد الملك كان ثمة غيرة عظيمة لأن المسيحيين احتكروا جميع الوظائف الإدارية، وحاول الخليفة أن يستخدم العرب في أمكنتهم، ولكن التغيّر لم يكن ناجحًا، وأكثر ما استطاع عبد الملك أن يفعله هو أن يحوّل الكتابة من الإغريقية إلى العربية، وأن يكتب على النقود))[15].

رابعًا: الدور الفكري للسريان في العهد العباسي (الترجمة)

لقد حققت الترجمة في هذا العصر منزلة عالية ومتقدمة نظرًا إلى أن الخلفاء القائمين على رأس الدولة قد شعروا أن تقدم الدول ونهوضها رهن بالاهتمام بالعلوم والمعارف التي لم تكن متاحة آنئذٍ إلا عن طريق نقلها من الشعوب التي كان لها باع وسبق في إنتاجها. ولذلك نجد أن هؤلاء الخلفاء قد انشغلوا بتشجيع الترجمة، وإجزال العطاء لمن يعمل فيها، ولا سيما السريان الذين كانوا يمتلكون مهارات كبيرة، وحضورًا مشهودًا له في هذا المضمار. فلما جاء الخليفة المأمون أراد أن يشد من عضد دولته، ويُقوي أواصر حضورها في المجالات كافة، لا سيما أنه كان قد ورث حركة ترجمة نشطة تعهد رعايتها من كان قبله في الحكم، فزاد اهتمامه بها، وعزز حضورها، وزاد ((الاهتمام بدار الحكمة، وأرسل إلى ملك الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلاد

كبرى، وكان لا بد لهما من خبرته وإخلاصه لتنظيم شؤون دولتهما الحديثة النشأة)). انظر: سمير عبده، المسيحيون السوريون، ص48.

(13) انظر: فيليب دي طرازي، عصر السريان الذهبي، ط1، (مصر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012م)، ص31.

(14) الشحات السيد زغلول، السريان والحضارة الإسلامية، ط1، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975)، ص131.

(15) أوليري، مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب، تمام حسان (مترجمًا)، (القاهرة: دار عالم الكتب، 2002)، ص119.

اليونان، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع فأخرج المأمون من أجل تلك المهمة جماعة من المترجمين السريان المتضلعين بالعلوم، منهم (الحجاج بن مطر، وابن بطريق، فما كان منه -أي المأمون- إلا أن أمر هؤلاء التراجمة بنقل وترجمة كل الكتب التي أحضروها ففعلوا ما طلبه منهم))[16].

وقد لمس المترجمون السريان هذا الولع بالترجمة من جانب الخلفاء بأم العين، فوجدوا في ذلك معبرًا لنيل الحظوة والمنزلة بفضل ما امتلكوه من معرفة باللغات اليونانية والسريانية، والضلّوع فيهما، فضلًا على عنايتهم بتعلم اللغة العربية، ما مكّنهم التسيّدَ والحضور، وقد كان من أشهر هؤلاء المترجمين السريان في العصر العباسي: ثوفيل بن توما الرهاوي وجورجيس وجبرائيل بن بختيشوع[17] ويوحنا بن ماسويه، والحجاج بن يوسف الكوفي وثابت بن قرة وحنين بن إسحق وإسحق بن حنين. ونخص بالذكر حنين بن إسحاق الذي ترجم كتبًا عدة في المنطق والفلسفة والطبيعة، لكن ما نقله أغلبه كان في الطب، وقد ترجم من اليونانية إلى السريانية والعربية، فترجم لغالينوس 97 كتابًا إلى السريانية، نقل منهم إلى العربية 39 كتابًا فقط.

وقد وصف دي بورفي كتابه (تاريخ الفلسفة في الإسلام) الدور الذي احتله السريان في مجال الترجمة فقال: ((إن الذين اشتغلوا بنقل كتب اليونان إلى العربية في ما بين القرنين الثامن والعاشر الميلادي يكادون جميعًا يكونون من السريان، ونقلوا ما نقلوه إما عن السريانية القديمة، أو عن تراجم أصلحوها، أو قاموا بها من جديد))[18].

غير أن المتابع نشاطَ السريان العلمي، وترجماتهم أمهات الكتب من اللغة اليونانية إلى السريانية، ومن ثم الترجمة من السريانية إلى العربية بعد هضمها والوقوف على معانيها، سيجد بلا مراء أن الكتب المترجمة والمصنفة أغلبها كان كتبًا طبية للوهلة الأولى، إذ إن هؤلاء المترجمين[19] أولوا عنايتهم لنقل كل ما يمكن استحضاره وترجمته من المعارف الطبية اليونانية، لتأتي بعدها من حيث الأهمية في الترجمة كتب الفلك والكيمياء وغيرها لتغدو الفلسفة في هذا السياق في ذيل القائمة من جهة

(16) الشحات السيد زغلول، السريان والحضارة الإسلامية، ص 171.

(17) ((يذكر أبن أبي أصيبعة أن الرشيد عندما مرض عالجه جبرائيل بن بختيشوع فرفع من مكانته لديه حتى إنه قال لأصحابه: كل من كانت لديه له إلى حاجة فليخاطب بها جبرائيل لأني أفعل ما يسألني فيه ويطلبه مني))، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج1، ط1، (د.م: المطبعة الوهابية، د.ت)، ص127.

(18) دي بور دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، محمد عبد الهادي أبو ريده (مترجمًا)، ط1، (مصر: لجنة التأليف والترجمة، د، ت)، ص27.

(19) ولقد بذل السريان أقصى جهدهم في الإحاطة بالتراث اليوناني، وكانوا يجوبون الأقطار سعيًا وراء استكمال الكتب التي وقعت تحت أيديهم، يقول حنين بن إسحق عن كتاب في البرهان لجالينوس الذي كان نادر الوجود في القرن الثالث الهجري، إني بحثت عنه بحثًا دقيقًا، وجبت في طلبه أرجاء العراق وسوريا وفلسطين ومصر إلى أن وصلت إلى الإسكندرية، لكني لم أحظ إلا بما يقرب من نصفه في دمشق))، القفطي، أخبار الحكماء نقلًا عن: الشحات السيد زغلول، السريان والحضارة الإسلامية، ص212.

الأهمية في النقل والترجمة. ولكن ترتيب سياق الترجمة وأولوياتها لم يكن عن غفلة أو من دون قصد بالنسبة إلى هؤلاء المترجمين السريان، فقد كانوا يعلمون علم اليقين أن البدء بترجمة الكتب الطبية عن اليونانية أو الفارسية هو أقرب إلى القبول والموافقة بالنسبة إلى الرهط الأكبر من عامة المسلمين؛ علاوة على خلفائهم، لأن الطب لا يثير مشكلات عقائدية ودينية كما هو حال الفلسفة التي لم تكن الأذهان قد تفتحت بعد لقبولها والتعاطي مع قضاياها ومشكلاتها. ولكن واقع الحال هذا لم يدم طويلًا، لأن كثيرًا من المستجدات والأحوال الطارئة في المجتمع العربي الإسلامي الوليد قد أذنت بالحاجة إلى قبول الفلسفة والترحيب الخجول بها، وبخاصة تلك المحمولة على أجنحة الطب، أي تلك الفلسفة التي حاولت أن تطرح مسائلها طرحًا غير مباشر لئلا تصدم العامة الذين كانوا يعتقدون أن التفلسف يفضي إلى الكفر والزندقة والخروج عن الدين القويم. ((حتى إنه برز لديهم اهتمام مبكر تجاه الفلسفة اليونانية من جهة، وتجاه الطب من جهة أخرى حيث باشروا فورًا بترجمة مؤلفات بلوطارخ ولوقيانوس، والمحاورات المنسوبة إلى سقراط))[20].

وعليه نجد أن المترجمين السريان قد تنبهوا جيدًا إلى الفلسفة قد لا تكون مقبولة في مجتمع إسلامي يخشى فيه الأفراد على دينهم من المماحكات والمناقشات المنطقية والعقلية، ولذلك حاولوا أن تكون الفلسفة ((كجواز سفر للطب[21] - لتدخل به إلى الثقافة والمجتمع الإسلاميين، لكنها مع ذلك لم تتجاوز طبقة الأعيان، أعيان السلطة بصورة خاصة، وذلك طلبًا للرعاية والحماية))[22]. أي إن السريان -في هذا المنحى- قد استخدموا الفلسفة سلاحًا لتعزيز منزلتهم العلمية والاجتماعية عند الخلفاء والأمراء والنخب العلمية العربية الإسلامية، بعيدًا عن العامة وشجونها. ففي الوقت الذي شُغِل فيه السريان بترجمة الكتب الطبية وشرحها والتعليق عليها، كانت عينهم في الوقت ذاته على الفلسفة التي تمنحهم منزلة ربما لا يستطيع علم آخر أن يمكنهم إياها. وقد ذهب (علي أومليل) في كتابه (السلطة الثقافية والسلطة السياسية) إلى مثل هذا الرأي قائلًا: ((إن الطب قد استعمل مطية للأقليات العالمة غير المسلمة لتجد لها مكانة داخل نخبة المجتمع الإسلامي، ولهذا السبب نجد أن الطب أدخله مسيحيون قاموا بترجمات لأهم الكتب اليونانية القديمة، وبالتالي للكتب العلمية والفلسفية الأخرى التي يعتبر الطب جزءًا منها))[23].

(20) الشحات السيد زغلول، ثقافة السريان في الحضارة الإسلامية، ص170.

(21) ((لقد دخل الطب رسميًا مع بدايات الدولة العباسية، وكان لأسرة مسيحية نسطورية –وهي أسرة بختيشوع– الدور الأول في ذلك، وقد بدأ صعود هذه الأسرة حين استدعى الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور لعلاجه الطبيب جرجس بن بختيشوع من جنديسابور –هذه المدينة التي كانت من مراكز انتقال التراث الهلنستي إلى العالم الإسلامي– حيث كان رئيسًا لمشفاها)). علي أومليل، السلطة الثقافية والسلطة السياسية، ص 169.

(22) علي أومليل، السلطة الثقافية والسلطة السياسية، ط1. (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1996) ص169.

(23) المرجع السابق، ص 169.

لقد تنبه العلماء السريان إلى أن الترجمة قد تهيئ لهم موطئ قدم ومنزلة في المجتمع الإسلامي، فنهضوا بها، وعملوا على نقل كل ما من شأنه أن يمثل حاجة ملحة لدولة عربية في طور التأسيس، ولذلك تراهم يهبّون إلى تعلم اللغة العربية والتمكّن منها على أيدي النحويين العرب كي تكون ترجماتهم أمينة ودقيقة، لأن ذلك وحده هو الذي يحقق لهم حضورًا ومنزلة في مجتمع إسلامي يبتغي حكامه التمدد والانتشار وإرساء دعائم الدولة. فها هو حنين بن إسحق[24] ((وكما تعلم اللغة اليونانية بإحساس من الحاجة إليها، كذلك نجد أنه، وهو أحد أبناء الحيرة اضطر إلى تعلم العربية في وقت متأخر من حياته حيث كانت الطبقات الدنيا في الحيرة تتكلم السريالية، فقصد البصرة وكانت في ذلك العهد أكبر معهد لعلوم اللغة العربية وملتقى أقطابها، يقصدها الطلاب من كل حدب ليحذقوا ويفهموا، وهناك لزم الخليل بن أحمد حتى برع في اللسان العربي، وبذلك أصبح يجيد لغات أربعًا هي: الفارسية واليونانية والعربية والسريالية التي هي لغته الأصلية. ولقد أعانه ذلك على أن ينقل الكتب إلى السرياني وإلى العربي))[25].

فهذا الجهد الذي بذله السريان كان إلى حد كبير قد أوتي أُكله، وتجلى دقة في الترجمة ومهارة في العناية بها وتجويدها، والارتقاء بها للوصول إلى درجة عالية من الأمانة العلمية مكّن هؤلاء المترجمين أن يحظوا بمنزلة علمية واجتماعية رفيعة، وقد سعوا بقدر ما توافر لهم من أحوال للمحافظة على هذه الصورة الإيجابية التي صنعوها بجهدهم ومهارتهم. ولذلك نراهم في حالة مراجعة دؤوبة لما يترجمون، فما إن قيض لهم أن يتعلموا اللغة العربية، ويجيدوا التعامل مع قواعدها، حتى تراهم يرجعون إلى ترجماتهم الأولى يعيدون العمل عليها وتجويدها وتنقيتها من النواقص والعيوب لتضحي ترجمات دقيقة وموثوقة. ولعل ذلك يبدو واضحًا كما يرى أوليري ((في قول إسحق بن حنين في رسالة إلى علي بن يحيى عن كتاب في الفرق لغالينوس ترجمته وأنا شاب من نسخة يونانية مشوهة، ثم لما بلغت الأربعين من عمري طلب إلي تلميذي حبيش أن أصلحها بعد إذ كنت قد جمعت قدرًا من المخطوطات اليونانية، وعند ذلك رتَبتُ هذه بحيث نسقت منها نسخة صحيحة قارنتها بالنص السرياني ثم صححتها، وتلك عادتي التي اتبعتها في كل ما ترجمته. ويضيف إلى ذلك قائلًا: نقلت هذا الكتاب، كتاب النفس لأرسطو، إلى العربي من نسخة رديئة، فلما كان بعد ثلاثين سنة وجدت نسخة في نهاية الجودة، فقابلت بها النقل الأول وهو شرح ثامسطيوس))[26].

(24) ((ولم يشأ حنين أن يقف عند حد النقل والتعريب، فلقد أحس قدرته على التأليف في هذه الموضوعات التي اشتغل بالترجمة فيها، وقد أورد القفطي قائمة كاملة لمؤلفاته، وقد كانت باللغتين السريانية والعربية، وكانت كتبه الطبية صورة منعكسة لكتب أطباء اليونان التي استنفد في ترجمتها أهم قسط من نشاطه في حياته العملية)). نقلًا عن: الشحات السيد زغلول، السريان والحضارة الإسلامية، ص 169.

(25) الشحات السيد زغلول، السريان والحضارة الإسلامية، ص191.

(26) أوليري، مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب، ص220.

استوعب العرب إذًا العلوم اليونانية عن طريق السريان، والأساليب الدقيقة للترجمة، فنحتوا المفهومات والتعابير المعقدة بلغتهم القومية، مستفيدين بمهارة عالية من المعارف القيمة في مجالات الفلسفة، والطب، والكيمياء، والفلك وجغرافيا الأرض التي استطاعوا أن يطلعوا عليها بفضل استفادتهم من الترجمات السريالية، الأقرب إلى الأصول اليونانية، وقد لعبت دورًا استثنائيًا عظيمًا للغاية في استيعاب المعارف والشروحات والتعليقات والمناقشات التي ضمنها السريان في ترجماتهم، ((وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن الحضارة العربية الإسلامية قامت في ركيزة أساسية من ركائزها على اللغة بحكم مركزية النص القرآني لها، فلا غرو في أن يتبدى المتفلسفون في هذه الحضارة وكأنهم -في ارتهانهم للترجمة- يتكلمون لغة أخرى غير اللغة المرجعية، لهذه الحضارة، أو يستحدثون -على حد تعبير السيرافي في مناظرته مع متى- لغة في لغة مقررة بين أهلها، ومن هنا السهولة التي أحرز بها السيرافي بوصفه إمام النحويين المتعربين انتصاره في تلك المناظرة على متى بوصفه إمام المنطقيين المتهلينين))[27].

لقد كان للترجمة والنقل في العصر العباسي شجون ومواجع ومبررات يتعلق بعضها بالمترجمين السريان أنفسهم الذين وجدوا أنفسهم في مواجهة مجتمع جديد يواجه عددًا من المشكلات التي تتعلق بالديانة المسيحية التي ينتسب إليها أولئك المترجمون، وهو ما يتطلب منهم أن يكونوا على معرفة بالمنطق والفلسفة اليونانيين لمواجهة المد المتزايد من المماحكات الكلامية الإسلامية، ويتعلق بعض هذه المشكلات بالديانة الإسلامية ذاتها حيث ينتمي إليها رهط كبير من العلماء العرب الذين أضحت لديهم خبرات كبيرة في المناقشة والجدل التي اكتسبوها من الشعوب التي تعايشت معهم، وهو الأمر الذي أفضى بهم إلى التعمق في قراءة منطق اليونان وفلسفاتهم من أجل أن يستتب لهم أمر الدفاع عن الدين والذود عنه في مواجهة الأقوام الأخرى. في هذا الجو الذي ينبري فيه كل طرف للدفاع عن عقائده وديانته نلاحظ أن ثمة حركة ((حركة فلسفية مسيحية -قد نشطت- أكثر استقلالًا عن اللاهوت منذ آخر القرن الرابع الميلادي إلى منتصف القرن السابع بزعامة يحيى النحوي واسطفان الإسكندري وغيرهما من رجال مدرسة الإسكندرية التي كان همها تقريب آراء الإغريق من الدين المسيحي في ما يتعدى مجرد التأويل العقلي للنص الديني، وهذه الحقيقة ذات أهمية في تحديد صنيع المسلمين وموقفهم من الفلسفة الإغريقية بعد أن اطلعوا عليها في صورة مختلفة، وبالأخص في صورتها الأخيرة القريبة منهم التي رسمها يحيى النحوي وأتباعه))[28].

أي إن المناخ الذي ساد في المجتمع العباسي وفر للسريان فرصة لا تعوض من أجل تحقيق ذواتهم من خلال نقلهم من الكتب ما وجدوا أنه قد يكون ذا نفع وفائدة، وبخاصة كتب الفلسفة، وذلك بعد

(27) جورج طرابيشي، وحدة العقل العربي الإسلامي، ط1، (بيروت: دار الساقي، 2002)، ص77.

(28) جورج طرابيشي، مصائر الفلسفة بين المسيحية والإسلام، ط1، (بيروت: دار الساقي، 1998)، ص39.

أن ترجموا أهم الكتب الطبية اليونانية، وأصبحت بين متناول المهتمين في العالم العربي الإسلامي. فمن الطبيعي والحال هذه ((أن يهتم المسيحيون السريان بدائرة الأفكار، التي رسمت خطوطها الفلسفة، فهم، مثل المسيحيين الإغريق، عملوا دأبهم لاستيعاب الفلسفة ومن ثم وضعها في خدمة عقيدتهم، ويتفرد في هذا المجال الشخصية العلمية الرفيعة، الفيلسوف والشاعر السرياني الأشهر برديصان الذي استطاع أن يلبي ميوله العلمية والفلسفية بفضل معرفته العميقة للغتين السريانية واليونانية على قدم المساواة، حيث كان متبحرًا في العلم السرياني والثقافة الإغريقية))[29].

وعليه فإن فضل السريان ومنزلتهم العلمية والمعرفية لم يتشكّلا بين يوم وآخر، أو في عصر واحد بعينه، وإنما امتدا على مدى أجيال متعاقبة، حيث كانت ترجماتهم تتعرّض لكثير من التصويبات والإضافة بما يتفق مع المخزون المعرفي واللغوي الذي كان يزداد يومًا بعد يوم. حيث ظهر منهم عدد من الأطباء الذين أثروا المكتبة الطبية العربية بمخزون ثرٍ من الكتب والمصنفات التي استفاد منها خلفهم ونشؤوا عليها، فضلًا على حضورهم الفلسفي الذي كان يتكامل مع الجانب الطبي ويغنيه. وحتى لو حاولنا أن نعدد أسماء علماء السريان وأطبائهم لما تيسر لنا مقام المقال ههنا؛ لأن ما يعنينا في هذا المنحى أن نثمّن ما قدمه هؤلاء العلماء عبر سنين طويلة وعهود متقادمة أغنوا فيها روافد العلوم والمعرفة التي صبت جميعها في بحر الإسلام -بالمعنى الحضاري للمفهوم- الذي كان ((يمثل بمعنى من المعاني توفيقًا تاريخيًا حقيقيًا -على الصعيد الديني- بين النظام الديني اليهودي والنظام الديني المسيحي في مركب ديني جديد أصيل يجمع بين الخاصتين الجوهريتين في كل منهما ممثلًا طموح الروح السامية إلى التكامل والشمول والتوحيد والجمع بين الدين والدنيا)).[30]

خامسًا: خاتمة

مما لا شك فيه أن ما ورد في بحثنا هذا من أفكار وطروحات حول دور السريان في العصرين الأموي والعباسي -سواء من جهة دورهم في الإدارة والدواوين والجباية وقيادة الحرب، أم من جهة دورهم الذي كان يتعاظم يومًا بعد يوم في إطار ترجمة كل ما يمكن ترجمته من اليونانية إلى السريانية وتاليًا العربية- لم يتطرق إلا إلى جانب بسيط من الجوانب المضيئة مما قدموه خلال مراحل طويلة من معايشتهم العرب المسلمين، لأن ذلك قد كتب عنه كثير، بحيث لم يعد عاقل يستطيع أن يشكك في ذلك الدور السرياني الذي أثّر في العرب كتأثير الأخيرين فيه أيضًا. وهذا يدل على أن إرادة العيش

(29) نينا بيغوليفسكايا، السريان في القرون الوسطى، ص 173.

(30) محمد جابر الانصاري، الفكر العربي وصراع الأضداد، ط2، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1999)، ص 111.

المشترك والحاجة إلى التواصل بين الأقوام والشعوب، حاجة تتجاوز الأديان التي ينتمي إليها أولئك الذين يتقاسمون الواقع مرغمين متناسين خلافاتهم وصراعاتهم التي لم تكن الأديان سببًا فيها، وإنما السياسات التي تدير الدول التي ينتمي إليها أصحاب تلك الديانات. وأكثر ما يعبّر عن هذا الموقف أن الأديان جميعها تنهل من المبادئ ذاتها، وتومئ إلى الأهداف ذاتها، هو ما عبر عنه (المهاتما غاندي) في موقف مشهور عندما جاءه مسيحي هندي يطلب التحول إلى الهندوسية، فقال له: ((اذهب وكن مسيحيًا صالحًا. وكان يعني بذلك طبعًا أن كل الطرق إلى الله صالحة شريطة توفر النية وقوة الإرادة والعزيمة))[31].

إن مشاركة السريان في الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية تدلنا على المنزلة التي نالوها من خلالها جهدهم في مجالات الإدارة والترجمة والنقل والطب والآداب، فرفدوا الحضارة العربية الإسلامية بثقافة علمية يعتد بها، وقد أعاد إنتاجها العرب، وأضافوا إليها، وتمثلوها حتى أضحت جزءًا من سياق ثقافتهم ومعارفهم، ونحن إذ نعيد النظر في قراءة الدور الحضاري الذي كان يشغله السريان في الماضي والحاضر على حد سواء، فإننا نتفق مع المؤلف السرياني في قوله: ((نحن روح الشرق، ملحه وسكّره، وإذا لم يعِ العالم العربي والإسلامي جوهر وجودنا وحضور رسالتنا، وإذا لم تدخل في عقله قيم التنوع والتعدد واحترام كل إنسان وكل جماعة على قاعدة المساواة، وإذا لم يتغير الشرق وينتهي من كل فكر أحادي إلغائي يبشر بالحقد والكراهية ورفض الآخر وتكفيره، تكون المنطقة في طريقها إلى جهنم)).

(31) فراس السواح، دين الإنسان، ط4، (دمشق: دار علاءالدين،2002)، ص106.

المصادروالمراجع

1. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ط1، (د.م: المطبعة الوهابية، د.ت).
2. الأنصاري. محمد جابر، الفكر العربي وصراع الأضداد، ط2، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1999).
3. السواح. فراس، دين الإنسان، ط4. (دمشق: دار علاء الدين، 2002).
4. أوليري. دي لاسي، مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب، تمام حسان (مترجمًا)، (القاهرة: دار عالم الكتب، 2002).
5. أومليل. علي، السلطة الثقافية والسلطة السياسية، ط1، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1996).
6. بور. دي، تاريخ الفلسفة في الإسلام، محمد عبد الهادي أبو ريده (مترجمًا) ط1، (مصر: لجنة التأليف والترجمة، د.ت).
7. بيغوليفسكايا. نينا، ثقافة السريان في القرون الوسطى، خلف الجراد (مترجمًا)، ط1، (سورية: دار الحصاد، 1990).
8. زغلول. الشحات السيد، السريان والحضارة الإسلامية، ط1، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975).
9. سالم. عبد العزيز، تاريخ الدولة العربية، ط1، (مصر: مؤسسة شباب الجامعة، 1997).
10. طرابيشي. جورج، مصائر الفلسفة بين المسيحية والإسلام، ط1، (بيروت: دار الساقي، 1998).
11. ـــــــــ، وحدة العقل العربي الإسلامي، ط1، (بيروت: دار الساقي، 2002).
12. طرازي. فيليب دي، عصر السريان الذهبي، ط1، (مصر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012).
13. عبده. سمير، السريان قديمًا وحديثًا، ط1، (عمان: دار الشروق،1997).
14. ـــــــــ، المسيحيون السوريون قديمًا وحديثًا، ط1، (دمشق: دار علاء الدين، 2000).